(١)

السلطة.. ثأر يتحكم

ما هو سلوك كل المرتبطين بأي شكل من أشكال السلطة في مصر؟ والسلطة هنا لا تعني الحكم وحده، بل أي شكل ممكن أن تمارس فيه السلطة من قبل أي رجل أو امرأة أو طفل في الشارع المصري، مجرد أن ينتابه إحساس بأنه قريب من السلطة، بإحساسه أنه محمي بشكل أو بآخر بسبب مصاهرته للسلطة في شكلها الرمزي؛ أو حتى في شكلها الطبيعي، وبأنه من الممكن أن يمارس أي شكل من أشكال السلطة الدونية كلما هبطنا في مؤشر السلطة سواء السياسية أو الاجتماعية.

ربما هذا هو ما يسمي بمتلازمة السلطة، إن ممارسة هذا الإحساس بأشكال مختلفة صعودًا وهبوطًا على سلم السلطة، ربما في ظني واحد من أهم وأحط أمراضنا الاجتماعية والعقلية، وربما يعود السبب وراء

هذه الممارسة إلى غياب الثقافة وتغلغل الإحساس بالخوف والرغبة في الثأر، إحساس بالدونية وعدم الأهمية يتحول إلى أشكال مختلفة للضجيج والصوت العالي.

سألت صديقي : لو أحضرنا أي رجل أو امرأة من الشارع ووضعناه على كرسي الحكم في مصر فما الذي سيفعله حين يستقر به المقام؟
أتتني ضحكته الطويلة العنيفة ثم سكتَ قليلاً، وقال: لنسأل السؤال بطريقة أخرى، هل ستكون هناك فروق في الحكم بين أكثر الدعاة للديمقراطية وأشد غلاة الديكتاتوريين في حكم مصر؟، فمثلاً لو أحضرنا أكثر الشعراء رومانسية، أو أحد الشعراء الذين ذاقوا الأمرين في المعتقلات والسجون في بر المحروسة من شرقها إلى غربها، أو أكثر الوزراء عمرًا في السلطة، أو أحد كناسي الشارع الذين يمدون بأيديهم لكل سيارة لامعة وهم يكسرون رؤوسهم استعطافًا، أو المتسولون الذين يتطلعون إليك بعينين ملؤهما طلب الشفقة والإحسان، أو تلك المرأة الملتحفة بالسواد التي تحمل فوق كتفيها طفلين وتمسك في يديها علبتيّ مناديل ورقية تعلم جيدًا أنك لن تشتريها ولكنها ستحصل منك على ما تريد، أو رئيس أحد الأحزاب الذي ينادي بالديمقراطية

لكل المصريين وهو في ذات الوقت من غلاة الديكتاتوريين، أو أحد هؤلاء الأولاد المغيبين في المخدرات، أو صبي الميكانيكي أو القهوجي، أو مدرس في مدرسة أو حتى فراش فيها، أو أستاذ بالجامعة أو أي محامي أو طبيب أو حتى فتى إعلانات...الخ، اختر من تشاء من الشارع أو من القرية أو الكفر أو النجع، بلطجي من شارع، أو رجل من المستضعفين؛ وضعه على كرسي الحكم، ترى ماذا يمكن أن يحدث، هل سلوك كل هؤلاء سيكون واحدًا، أم أن السلوك سيختلف، ومتى ستزيد مساحة الديمقراطية، ومتى ستقل؟

هل ستكون هناك فروق إحصائية وموضوعية بين هؤلاء، وإلى أي مدى؟ هل ستتعجب إذا قلتُ لك غن سلوكهم جميعًا سيكون واحدًا، وأنه لن تكون هناك فروق إحصائية تذكر.

لا تتعجب، لا يمكنني أن أنكر أن هذه الفرضية قد يتمتع بها كل الناس في العالم، وليس مصر وحدها، والتاريخ العالمي يمتلئ بنماذج من هؤلاء، ويمكنني أن أتناول امرأتين؛ واحدة في التاريخ العالمي (كايزابيلا بيرون)، وأخرى في التاريخ المصري هي (شجر الدر) على سبيل المثال لا الحصر.

إن فكرة الملكية والسيطرة وحب السلطة والقيادة تولد مع بعض البشر ولا يمكن هدمها، ويجب تشجيعها ورعايتها، وتقويمها كي تسير في الطريق الصحيح، ولكن مشكلة السلطة في مصر ليست في الفرد فقط، لأننا في ذلك نشبه بقية شعوب الأرض، مشكلة السلطة في مصر يحددها مثل فولكلوري قديم في مصر "قال يا فرعون إيش فرعنك، قال ما لقيتش حد يلمني"، هذا هو جوهر المشكلة، ولا جديد في المسألة حتى الآن، لذلك تصبح مشكلة الحاكم، أي حاكم في التاريخ المصري كله هو إما استمالة هذا (الحد)، أو قتل هذا (الحد)، أو وضع كل (الآحاد) في المعتقلات والسجون، فالمشكلة لم تعد ما يمكن أن يقوله هذا (الحد)، المشكلة في نظر الحاكم أن هذا (الحد) يتطلع إلى (الكرسي) حتى لو لم يقل ذلك صراحة، يتطلع إلى السلطة، يتطلع إلى الحاكم، وهو ما لا يطيقه هذا الحاكم، فحتى الإنسان البسيط في حياته يكره أن ينظر أحد إليه طامعًا فيه، هل يطيق أحد منا ومنكم أن ينظر أحد آخر إلى ما في يديه، ألن يتهمه بالحسد والحقد؟ وانظروا إلى أنفسكم في الغرف المغلقة، أو الأحاديث الجانبية، ستتحدثون فقط عن الطامعين فيكم، في أموالكم أو مناصبكم، أو في كراسيكم، ولن تتذكروا فقط سوى ما تمتلكونه ولا شيء آخر، فلا شيء آخر يستحق التذكر سوى فعل الملكية.

أنا أشك في أكثر المدافعين عن حقوق الناس بأنه لو استلم السلطة، فإنه خلال سنوات سوف يتأرجح كرسيه على بحر من الدماء.
فهل قدمتْ الثورة حين قامت حلولاً لهذه المشكلة، أم زادتها مأساوية، وأصبح للسلطة روابط كيميائية تتصل بالثأر والانتقام.

يدعي البعض أن كل ما فعلته الثورة كان حالة من الانتقام، تعالوا ننظر فيما قاله (فولتير): "المساواة أكثر الأشياء طبيعية وأكثرها خيالاً ووهمًا في الوقت ذاته"، وقال أيضًا عن الثورة الفرنسية: "جاء دور المساواة، وأُرسلتْ الحرية إلى المقصلة لقطع رأسها!".

السلطة في مفهومها لا تعترف بالمساواة، فليس هناك مساواة بين حاكم ومحكوم، وكرسي الحاكم في المنظور التصويري يكون أعلى من كرسي المحكوم، أليس كذلك؟ فكيف لهذا الحاكم الذي يمتلك السلطة؛ أن يطبق المساواة؟
لقد طبّق المساواة على من أراد الانتقام منهم – الإقطاع والأمراء والباشوات – وأعطى الناس، أليس ذلك مساواة؟ ولكن المساواة هنا بنيت على ممارسة للسلطة بشكل استبدادي، لماذا؟ لأن هناك تاريخ طويل من الفشل الذي يضم كل الأحزاب المصرية قبل الثورة في أنها

لم تستطع أن تقدم للمصريين شيئًا، كانت كلها وعود طائرة في الهواء ربما منذ ثورة ١٩١٩م، فلم يتحقق أي شيء.

أمسك (عبد الناصر) السلطة وبمصر ١٨ مليون نسمة أغلبهم من الفقراء والمعدمين خاصة في فئات العمال والفلاحين، فكان أول قراراته تصب في صالح هؤلاء، تشغيل العمال، ثم الإصلاح الزراعي، لقد كان مأزقه في حالة العداء التي نشبت بينه وبين المثقفين الذين لم يستطيعوا أن يفهموا أنه رجل عسكري عملي يدرك المأزق المصري على حقيقته في ذلك الوقت، وكانت تلك هي الحلول التي يملكها، كان ما يقدمه في ذلك الوقت نوع من اليوتوبيا التي تحققت بشكل أو بآخر في أرض الواقع، وبالتالي كان لابد والأمر هكذا من وقوع ضحايا، فليس هناك ثورة في التاريخ ليس لها ضحايا ولم تخضب يداها بالدماء، فهل كان (عبد الناصر) مدركًا لكل ما سيحدث بعد ذلك؟

أعتقد أنه سؤال يحتاج الكثير من المناقشات، لكن في ظني أن كل ما حدث بعد ذلك كان نوعًا من الانتقام المنظم المتبادل سواء من السلطة أو سواء من الشعب أو سواء من المثقفين الذين أصبحوا في حالة عداء دائم مع السلطة، هذا الانتقام الذي أدى في النهاية إلى تدمير كل شيء، كل من حكم مصر أو كان له جزء من السلطة بعد كل ثورة أو

هوجة في مصر، أو قاد انقلابًا أو ثورة؛ سمها ما شئت، فكتب التاريخ المدرسية تُملي علينا الكثير من الضلالات، كل من فعل ذلك حصل على نصيبه من الخير والشر من (تورتة) الحكم في مصر، بعضها كان خيرًا لصاحبه، وبعضهم كانت وبالاً عليه، كانت وبالاً وخيرًا على (مصطفي كامل)، ووبالاً وخيرًا لـ(سعد زغلول)، وكانت وبالاً على (جمال عبد الناصر)، وكانت أكثر وبالاً على الوحيد الذي مات فقيرًا معدمًا (محمد فريد) هناك بعيدًا على أحد تلك الأرصفة الباردة في أوروبا، ولولا أن قيض الله له أحد التجار لما كانت جثته قد عادت لمصر.

أليس هذا أمرًا عجيبًا، أن تقوم بالثورة وتفعل ما هو في صالح الأغلبية الأمية وغير المتعلمة، ومع ذلك يراك الجميع مستبدًا، ما الذي كان يمكن أن يفعله (عبد الناصر) مع أمة فقدت رأسها؟ ألم يكن مطلوبًا منه أن يكون هو الرأس؟ ألم تكن له الكثير من الإيجابيات التي يقف التاريخ شاهدًا عليها، والسلبيات أيضًا؟ لكن من منا لا يُخطئ؟

قامتْ الثورة، وبعد أربع سنوات أُممت قناة السويس قبل أن تسقط المدة القانونية لشركة قناة السويس بعدة سنوات تعد على أصابع اليدين، ودخلنا فيها حرب ٥٦م لننتصر سياسيًا، ثم لنخسر عسكريًا واقتصاديًا الكثير، فهل كان الأمر يستحق؟

بعد خمسين سنة من حدوث ذلك يجب أن نسأل أنفسنا، هل كان الأمر يستحق؟ ألم تكن الصين أولى بهونج كونج مثلاً منذ عشرات السنين بدلاً عن انجلترا؟ ألم نرى أن (عبد الناصر) بعد أن نفض يديه من أعدائه الداخليين من الأحزاب والمثقفين، وبعد أن أعطى العمال والفلاحين في مصر – الأمة المعدمة – ما لم يكونوا يحلموا به ولو بعد مليون سنة، تحول إلى أعداء الأمة الخارجيين؟ ألم يكن الرجل يفكر؟ بلى، وكان على صواب مهما حاول المزايدون أن يدعوا.

يُفسر الكثيرون قانون الإصلاح الزراعي بأنه رشوة اجتماعية قدمتها الثورة للشعب المصري، مما أدى بعد ذلك إلى تفتيت الرقعة الزراعية، وأدى إلى استحالة استثمار هذه الأراضي من قبل الفلاحين مباشرة، ومما حدى بهم إلى إعادة التعاقد مع بعض الملاك القدامى أو بيعها إلى ملاك جدد[1]، وإلى انهيار المحاصيل الزراعية في مصر، إلى الحد الذي شحذنا فيه القمح بعد ذلك، فهل كان (عبد الناصر) السبب؟

(١) نفس المشكلة شهدها العراق عام ١٩٧١ على الرغم من صدور قانون الإصلاح الزراعي به عام ١٩٥٨، إذ أعاد الفلاحون الأرض للملاك القدامى لإعادة زراعتها لعجزهم عن استثمارها مقابل حصة من الأرض.

الحقيقة أننا يجب أن نخرجه من هذه المسألة تمامًا، فنحن في النهاية السبب، نحن من كان العالم يأكل ويلبس مما لدينا، ولا ينتهي الأمر عند ذلك، بل ها نحن نعود للإقطاع من جديد، بتملك بعض الناس ملايين الأفدنة تحت أسماء وهمية، وأصبح التحايل والتلاعب وترقيع القانون هو سيد الموقف في النهاية تحت اسم الرأسمالية الوطنية.

ما هو السلوك الذي تركته سنوات ما بعد الثورة على الناس؟، أصبح المال السائب كثيرًا، فتحول الكثيرون إلى لصوص، حالة يطلق عليها الكثيرون "الأنفلونزا السياسية" فحين تفتح النافذة فجأة لابد للجميع من أن يصاب بها، المشكلة أن الأنفلونزا تحولت إلى وباء ومرض مميت، فمن نحاكم وإلى من نتوجه بالاتهام؟ هل كان (عبد الناصر) السبب، أم نحن الذين لم نستطع أن نتعلم أبدًا مما فعله ومما تركه لنا؟

في التعليم طبّقت الثورة المساواة، فهل كانتْ على خطأ أم صواب؟ أنا أحد أبناء الثورة الذين استفادوا من التعليم المجاني، والآلاف والملايين مثلي، فهل كان مطلوبًا من (عبد الناصر) أن يدخل كل مدرسة ويعلم كل طالب، ينسى الكثيرون أن التعليم له مراحل مسؤولية متعددة، ربما يجب أن أتجرد من عاطفتي وأعترف بأنه على الرغم من فتح

التعليم لكل الناس إلا أن كل الناس حصلوا على تعليم مشوه، إما ناقص علم أو ناقص ثقافة، والمصيبة أن الاثنين كارثتان بكل المقاييس، إضافة إلى ذلك فإن نسبة الأمية مازالت مرتفعة مقارنة ببقية شعوب الأرض، ومن حصل على تعليم؛ حصل على تعليم رديء، فأي مقارنة متواضعة وبسيطة بين خريج اليوم (المتوسط) – وفقًا لتصريحات كل وزراء التربية والتعليم، والتعليم العالي؛ بأن الامتحانات دائمًا في مستوى الطالب المتوسط – وبين خريج ما قبل الثورة في الثقافة واللغة والخط والقيم والقراءة والعلم؛ ستصب في صالح الأخير جملة وتفصيلاً، ولكن كم كان عدد من يتعلم؟ وكم كان عدد الأميين؟ ما السبب في أن مخرجاتنا أصبحت رديئة؟ (عبد الناصر)؟ لا أظن فنحن السبب، فقد أصبنا جميعًا بالبرد، لم نصدق أننا أحرارًا، فبدأنا نتصرف بالمائل السائب، كم مدير شركة ظهر أنه كان لصًا، وكم من وزير ارتشى، وكم من عضو منتدب دخل السجن؟ العشرات، ولو دقق القانون قليلاً لزججنا في السجن بالآلاف من اللصوص، لصوص الثورة، لصوص اليد المطلقة، الذين أصابتهم حالة الحرية التي وجدوا عليها أنفسهم فجأة.

من هنا أصبحتْ كل مخرجاتنا رديئة، أم أننا فهمنا الدعوة إلى التعليم بشكل كامل خطأ، وها نحن نعود مرة أخرى بعد سنوات من الثورة إلى الجامعات الأجنبية والخاصة، وبدأنا في خصخصة خجلى للتعليم الجامعي من خلال شعب اللغات التي تم افتتاحها في كليات التجارة والحقوق وغيرها، هذا اعتراف صريح وضمني بأننا كنا مخطئين، فهل نستمر في الخطأ، فأي دولة تلك التي يمكن أن تستوعب وظائف لمليون خريج من الجامعات والمعاهد والدبلومات الثانوية الفنية؟

ها هو غول البطالة يفتح فكيه على مصراعيهما فتنشب أنيابه في جسد الوطن جريمةً وفسادًا وكل أشكال الخطايا الاجتماعية، ها هم رجال السياسة قد بدأوا في فتح الأكاديميات والمعاهد الخاصة والجامعات الأجنبية، ها هم كل من آمنوا بالثورة يلغونها في طرفة عين.

كل ذلك يدعوني مرة أخرى للتساؤل، إذا كان قد انتهى الأمر بنا إلى ذلك، فلماذا قامت الثورة؟

بالمناسبة قيام الدولة بتعليم كل الناس ليس بدعة ابتدعها (عبد الناصر)، لقد كنت في زيارة لـ(مالطا) منذ عدة شهور، وهي دولة صغيرة تقع في قلب البحر المتوسط انضمت إلى دول الاتحاد الأوروبي، وهناك علمتُ بأن التعليم تتيحه الدولة لكل المواطنين مجانًا، إذن فلم يقم (عبد الناصر) ببدعة.

ليست المشكلة (عبد الناصر) أو غيره، لقد مرّ على مصر مئات الحكام منذ بداية التاريخ، البعض منهم كان مصلحًا عظيمًا، والبعض منهم كان في وادٍ، والناس في وادٍ آخر، البعض منهم ترك لنا ما يتحاكى عنه العالم، والبعض منهم لم يتركنا سوى كومة من العظم، لم تستطع السلطة أبدًا على مدى القرون الماضية أن تستقطب الناس، كانت هناك دائمًا سدودًا بينها وبين الناس، تم زرع الخوف في كل أفئدة الناس من السلطة، الخوف من السلطة حالة تمس كل الشعب المصري ولا أستثني من ذلك أحدًا، فمن يملك السلطة يملك الشرطة والسجون والمعتقلات والخوازيق والتعذيب، وهو ما عاش فيه المصريون طويلاً، طويلاً جدًا، وحان الوقت لأن يختفي كل ذلك، وتعود للناس الثقة في أنفسهم وقوتهم وزعمائهم، أصبحت المشكلة كلها تكمن في أفعال بدائية اجتماعية أراها تتضخم في سلوك الناس ونفوسهم.

أعود مرة أخرى لمصطلح (السلطة)، ماذا تعني السلطة في القاموس المصري ولدى العقل المصري؟ هل تعني إصلاح حال الفقراء؟ لقد حاولنا ذلك ولكن ما فعلناه كان قريبًا من المثل المصري (جاء ليكحلها فعماها)، هل هي الحكم؟ لقد ارتكبنا أسوأ أشكال وأنواع الخطايا وليس مجرد أخطاء عادية في الحكم سواء الملكي أو الجمهوري.

كان للملكيين أعذارهم فهم ليسوا مصريين ولم يشعروا أبدا بأحاسيس المصريين البسطاء، ولكن ماذا كان عذر الأحزاب، ومهما قيل بأن الجميع كان يكتب قبل الثورة ما يريد، نعم كان يكتب... وكفى؟ لكن من الذي قام بالتغيير – والتاريخ لا يعترف إلا بالحركة، لا يعترف إلا بمن قام بالتغيير. ما أريد الوصول إليه، كون الثورة قامت بالتغيير، ونحن لم نتغير، بل ها نحن الآن نعيد كل الأمور إلى ما كانت عليه.

السلطة فعل غير عادي، وصاحب السلطة يضمر بعض صفات الإله، وصفات لاعب العرائس، وصفات القاتل، وصفات السجان، وصفات تنكرية كثيرة.

ولماذا لا يستقيم حال السلطة في مصر؟، لأن الشعب لا يشارك فيها، ألم يقل (نيتشة) في يوم من الأيام: "حقًا إنني أسخر كثيرًا من الضعفاء الذين يظنون أنفسهم صالحين، لأنهم ليس لديهم مخالب لينشبوا بها"، إن ما يفعله المسؤول الأول عن السلطة في مصر منذ بداية التاريخ هو تقليم أظافر الشعب ونزع كل مخالبه، وبالتالي فإن قيادة قطيع من الأرانب يصبح عملاً في غاية السهولة، أليس هذا ما فعله كل حاكم في التاريخ المصري؟، سياسة تقليم الأظافر بجبال القوانين التي تقيد

الحريات، وكل أشكال ممارسة الديمقراطية العرجاء والمشوهة والممجوجة، بعضها كان يجوز في الفترات الانتقالية كالحالة التي كانت عليها الثورة عند قيامها، أما ما حدث بعد ذلك فمن الملام فيه؟ الجميع... مرة أخرى لا أستثني من ذلك أحدًا.

هل يمكن أن نقول بأن المواطن المصري العادي يعاني من نوع من الشيزوفرينيا فيما يتعلق بخلية السلطة الوراثية داخله؟ إذا كنتَ حاكمًا فأنت الإله، وإذا كنت محكومًا فأنت الأرنب، والخارج عن هذا التصنيف قلة قليلة للغاية، قلة شاذة، قلة تشبه إحصائية نسبة عدد المرضى بالسرطان أو فيروس (سي) أو من لديهم (هيموفيليا) الدم ونسبتهم وتعدادهم بين المصريين، أليس هذا اكتشافًا جديدًا يضم إلى قائمة اكتشافاتنا العملاقة التي لم يهتم بها أحد، ولن يهتم بها أحد.

أحد معاني كلمة (سلط) و (سلطن) في اللغة طول اللسان والقوة والقهر، هذه هي المعاني التي احتفظنا بها لكلمة السلطة عبر تاريخ طويل من الزمن المبني على القهر والاستعباد، ولا يقتصر ذلك على حاكم، وإنما يمتد إلى كل رب عمل، رب أسرة، في الأغلب الأعم، على كل شخص تم استئمانه على شخص آخر. أنظر لأصدقائنا

بالجامعة، إنهم يمارسون – أغلبهم – نوعًا مقززًا من الديكتاتورية على الطلاب وعلي زملائهم الأقل منهم مرتبة. أتطلع إلى الأسطى في محل الميكانيكي، إنه يمارس قوة غاشمة على صبيانه. أنظر إلى رئيس مجلس إدارة صحيفة – أيًا كان منهم سواء الراحلون أو الجدد عدا من عصم ربي – فنجده يُمارس السلطة بأسوأ أنواع الخسة، فلاح – ينتمي لمهنة الصحافة النبيلة – أتى من قريته ليمارس السلطة في أسوأ صورها رغم انتماؤه الشكلي لطبقة المثقفين، ليثبتَ لي أنّ مثقفًا واحداً فاسداً أسوأ مليون مرة من مليار أمي فاسد. حتى المثقفين الذين يجلسون على مقاعد السلطة، كلهم أشكال للسلطة لا تعد ولا تحصى، فهم إما مدافعون عن السلطة بشكل مثقف أو مدافعون عن الثقافة بشكل متسلط، وندرة هم من دافعوا عن الثقافة وحدها، ووحدها فقط.

إذن هناك أمر ما يتعلق بالوراثة السلوكية، أو سلسلة ردود الأفعال على القهر الذي يمارس من أقصى درجات سلم السلطة علوًا حتى أدناها مرتبة، لقد أردنا في كل قوانيننا التي سنناها أن نضمن ديمقراطية للحاكم في اتخاذ القرار – الحاكم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى– (ديمقراطيته هو فقط لا مؤاخذة)، وأن يتحرك بحرية كما يريد، ولكن تقل هذه الدرجة في الديمقراطية حتى تنقطع كلما هبطنا

في سلم السلطة، ربما إلى الحد الذي أصبحتْ فيه القرارات تُتخذ في الدول العظمي ويترك للحكام في دول العالم الثالث حرية زمنية في تصريف هذه القرارات، أما بقية الشعب فلا حس ولا حركة ولا حرية ولا حتى وجود أحيانًا.

وأعود إلينا فأجد سلسلة السلطة التي تبدأ قوية شكليًا – على الأقل– في أعلى الهرم ثم تبدأ في الضعف كلما نزلنا في حلقاتها درجات لتختفي الديمقراطية تمامًا وتحل محلها صفات الألوهية التنازلية التي تصل لحد سفك الدماء حين يجد صاحب السلطان أي تمرد عليه، ويمكنكم قراءة كل تقارير مركز البحوث الاجتماعية والجنائية لتكتشفوا هذه الحقيقة دون كثير من العناء.

ما الذي يدفعهم لذلك؟ غياب الرقابة، الديكتاتورية المسماة خطأ بالديمقراطية، تغلغل الخنوع، الرغبة في القوة والثراء. تصبح الدوافع في النهاية لا معنى لها، حين تكون السلطة (كديل الكلب عمره ما ينعدل)، وحتى إذا كان العلاج هو الديمقراطية، فقد استخدمنا الديمقراطية في التاريخ المصري المعاصر أسوأ استخدام لتحقيق أقصى أحلامنا الديكتاتورية قسوةً وتفردًا.

(٢)

القاتل التسلسلي .. الثأر

الثأر؟.. وما علاقة الثأر بالعقل المصري؟ وبعدين إيه حكاية القاتل التسلسلي الاجتماعي دي يا عم؟ هل هذا معقول؟

سألني صديقي وقد اتسعت عيناه من الدهشة ثم استطرد، ثم إذا قبلنا بفكرة الثأر في العقل المصري، فكيف انتقلت هذه للمؤسسات؟

لم أفكر أبدًا في الثأر كعقيدة مصرية أصيلة، ولكن كلمات مثل (العين بالعين والسن بالسن) لها جذور تاريخية ودينية، وعلي الرغم من أن الدين حضّ أيضًا على التسامح (عند المقدرة) (فمن عفا وأصلح)، ومع ذلك فإن رائحة الدم وشواء اللحم الحي أقوي من أي تأثير ديني، وهذه واحدة من معضلات هذه الدراسة؛ من أين أتى هذا التناقض بين سماحة الدين، حتى المسيحية (من ضربك على خدك الأيسر)، وبين الرغبة المتأججة في الثأر؟ كيف رأى (غاندي) العجوز الحكمة البينة حين قال: "لو اتبعنا مبدأ العين بالعين لأصبح العالم كله أعمى".

لقد تحول ثأر القرية والكفر – ثأر الدم – إلى ثأر معنوي ومادي في المدينة، تحول ثأر القروي وابن الجنوب المبني على الدم والتنكيل بالجسد إلى ثأر لغوي ومعنوي ومادي لدى المثقف، ما الذي فعلته الثقافة بالعقل المصري، في الوقت الذي كان يجب لفكرة الثأر أن تغيب وتتوارى، بفعل الثقافة والمتوارثات الحضارية للعقل المصري، تحولت إلى نوع شيطاني لا يحتمل.

تعالوا ننظر إلى المثقف، أستاذ الجامعة – مثلاً – حين يشعر بأن أحد أبنائه من المعيدين أو المدرسين قد انتقد فكرةً له بشكل علمي مهذب، تتمحور المسألة بعد قليل من مرحلة عدم قبول الآخر، إلى مرحلة الثأر اللغوي والرفض للآخر بعنف، إلى تهديده في مستقبله وحياته الأكاديمية، ويحمل الطرف الأضعف هذه الغصة والإهانة داخله ليمارسها بشكل أعنف على تلامذته، فلا يبقي ولا يذر، وهكذا في بقية الوظائف والأعمال، كل صاحب عمل يرتكب الجريمة الأولى، يترك في البقية رغبة في الثأر تكاد لا تنمحي، فتظهر في شكل ردود أفعال متوالية نزولاً في سلم السلطة إلى أدني درجة.

تبدأ علاقة الثأر في مراحلها الأولى لدى ابن المدينة بعدم قبول الآخر، وتبدأ في التوسع شيئًا فشيئًا إلى حالة الرغبة في القضاء على الآخر تمامًا وربما لو استطاع إلقاؤه في حمض نيتريك مركز لفعل.

حسنًا لقد انتهينا في هذه السلسلة إلى ما بدأنا منه، كان الدم هو أول فعل ثأري في التراث، أصبح الدم هو آخر الأفعال في الحاضر المرير.

ما الذي رسخ فكرة الثأر إلى هذه الدرجة في العصر الحديث في العقل المصري؟ هل ساعدت الديكتاتورية المستمرة على ذلك؟ وهل كان للسياسة دورٌ فعال في ذلك؟ وهل طحنُ المعارضين واعتقالهم ونفيهم وربما قتلهم؛ نوع من الثأر أو القتل الجماعي، والطريق بين قبول الآخر ورفضه؟

أمامي عشرات الحالات لزملاء في الجامعة والمؤسسة والمستشفى والوزارة والإمارة التي ترسخ هذه الفكرة – على الأقل في ذهن العبد لله – ووصل الحال بالبعض إلى الانتحار، كأنه نوع من الثأر من الذات، (بيدي لا بيد عمرو).

توقفنا جميعًا أمام حالات ثأر القرية والجنوب، ولم نتوقف أمام حالات ثأر المثقف والمتعلم في المدينة وكل من أعطاه الله هبة ليقف على أمرِ الناس، هل أستطيع الربط بين الخلية الوراثية للثأر لدى الناس، وتمحور وتطور فكرة الثأر العقلي واللغوي وصولاً للثأر المادي لدى المصريين.

نحن جميعًا لا نُحب الدماء، ولكننا نقتل بكل الوسائل الأخرى التي بأيدينا، سواء كانت سلطة أو مركزًا أو كرسيًا على درجة أعلى على نفس السلم، إن مقاعد الثأر ليست متناثرة عشوائيًا، إنها سلسلة من الدرجات على سلم الثأر من الدماء حتى الثأر العقلي، حتى الخنوع والاستسلام في النهاية، كل ذلك يؤكد فكرة متلازمة الثأر، فإن لم تثأر فإنك تنهار على ذاتك وتخنع، تثأر من ذاتك أنت لأنك لا تستطيع الثأر من الآخرين.

إن الثأر يشبه هذا القاتل التسلسلي، يتحول من ضحية إلى أخرى، فإما أن نحتفظ بالشكل نفسه من عملية قتل إلى أخرى، أو نحتفظ بفكرة القتل نفسها من ضحية إلى أخرى، علينا إدراك العلاقة في كل مرة بين كل جريمة ترتكب وأخرى، ولأن الثأر جزء من تركيبتنا الوراثية الثقافية فإننا نرتكب جريمة الثأر أحيانًا دون أن نعي، ليس من المهم في كل جريمة أن يكون هناك قتيل، بل المهم إفراغ الشحنة الثأرية من داخلنا، ربما نقف عند أول جريمة نرتكبها، وربما تستمر الشحنة في عدد من الجرائم سواء على نفس الضحية أو تنتقل إلى ضحايا آخرين، سواء كانت موجهة لمجموعة أشخاص أو لشخص أو لكائن حي، أو لشيء كالانتقام من أعمدة الكهرباء ومن الشوارع ومن السيارات

ومن مقاعد الدراسة ومن الحوائط ومن المرور عكس الاتجاه ومن الإنجاب الكثير، إنها حالة انتقامية مركبة، إفراغ شحنة الغضب.

تخيلوا ماذا يحدث حين ينقلب الحكم إلى حالة ثأرية بين الحاكم والشعب، بين الحاكم والمثقفين، بين الحاكم ومنتقديه، بين الحاكم والكلاب اللاهثة لإرضائه من جهة وبين هؤلاء الذين يراهم كلابًا ينتقدونه، عليك أن تقف مع ذاتك وتحاول كشف مكامن الثأر المضاد داخلك، ستجد العديد من الأشكال، ولن تجد أي شيء إذا كنت ملاكًا، إن الثأر قد يتمثل في نظرة أو كلمة أو فكرة عابرة لم يرها أحد وقد يتمثل في بحيرة دماء، وبينهما تقع كل أشكال الجريمة.

إن ثأر الحاكم من الرافضين له، أو الرافضين لفكره يشمل كل التاريخ المصري المعاصر، نحن أمام إعجاز علمي وسياسي واجتماعي وتاريخي في قدرة الحاكم العربي وليس المصري وحده، على التنكيل بكل أعدائه والثأر منهم، بإلقائهم في غيابات السجون والمعتقلات والصحراء المغلقة التي تمتلئ بالثعابين والعقارب وكل الحشرات والحيوانات القاتلة. وأداة الثأر دائمًا هي السجان.

أما الإنسان المواطن الضعيف فهو لا يخلو أيضًا من خاصية الثأر طالما تمكن من ذلك، حتى بعض الحيوانات تتذكر من أساء إليها وتكون لديها قدرة على الثأر حين تتاح لها الفرصة. إذن الثأر غريزة حيوانية لم يستطع الإنسان تهذيبها أو الارتقاء بها، لقد تمحورت فكرة الثأر لدى الإنسان هنا إلى حدٍّ لعين ودامي، تطورت وارتقت لتحل فكرة الانتقام والتنكيل على مستوى جمعي.

تقف عبارة (سبينوزا) كالغصة في حلقي: "كونك عظيمًا لا يعني أنك فوق الإنسانية فتتحكم بالآخرين، بل يعني أن تقف فوق الشهوات، وأن تحكم نفسك بنفسك". ائتوني بهذا الحاكم العادل المنزه الذي نظر داخل نفسه أولاً وارتضى العدل والحكمة والصبر والضمير والحب لكل الناس، هل هذا نبي أم حاكم؟ وللأسف حتى لو ظهر نبي الآن فإن أمن الدولة – في أي دولة من دول العالم الثالث – سيضعه في السجن متهمًا إياه بالجنون، إنه سيتخلص في تلك الحالة من مصدر تهديد للسلطة وليس مصدر تهديد الدين، وهو ما يعكس حالة التناقض بين قبول الحاكم للدين كوسيلة لتثبيت السلطان، وبين رفض الحاكم لأي فكر ديني سيمثل تهديدًا لسلطانه.

لم نستطع التخلص من فكرة الثأر والانتقام من كل من أساءوا إلينا عن سوء نية أو حسن نية، لم نستطع الانتقال من فكرة الثأر إلى فكرة التسامح، فلا نحن تسامحنا، ولا نحن أعرضنا عن من أساء إلينا، بل زدنا الطين بِلة، قد تمثل الثورة حالة الثأر الكبرى في التاريخ المصري المعاصر ليس فقط فيمن أساء إلى الشعب ولكن فيمن أساءوا إلى أنفسهم وعقولهم وتاريخهم، ولذلك لم تصدق الثورة كل من حاول الاقتراب منها، في هذه المرحلة لم يكن بإمكانها أن تثق في أي شخص إلا نفسها، فهي مرحلة التغيير في التاريخ المصري المعاصر، ومن هنا بدأت المشكلة الحقيقية، لقد بدأت العملية العكسية أو الثأر من الثورة ومن (عبد الناصر) عقب وفاته؛ أو قبل وفاته بسنوات قليلة، وتجمعت كل الجرذان التي طردتها الثورة لتنهش في قائدها، في لحظة الثورة لم يكن يمكن أن تتم الثورة دون الثأر من كل من خدعوا الشعب البسيط الأميّ الذي لا يشارك لا في الحكم ولا في أي شيء، وهو هنا حق مشروع، ولكن ما هو المشروع في الثأر بعد ذلك من الثورة، وما هو المشروع في الثأر من كل أشخاصها بغض النظر عن اختلافنا أو اتفاقنا معهم، كان لا بد للثورة أن تقوم، وكان لا بد لها من أن تثأر من كل من خدع هذا الشعب المسكين طوال قرون، ربما غالت في ثأرها، ولكن الثأر هنا تم من أجل السواد الأعظم فهل كان يستحق؟

نعم كان يستحق حتى يمكننا أن نتعلم جميعًا وأن نعمل جميعًا، ولكننا أدركنا الحرية خطأ، فوقعنا في متاهة من ردود الأفعال المتوالية التي أودت بنا إلى ما نحن عليه الآن.

ما هي هذه السلسلة البذيئة من حالات الثأر والانتقام التي نمارسها جميعًا بوعي أو بدون وعي، الجميع يثأر من الجميع كأننا في حلقة مفرغة، لقد زرع الشك داخلنا فكرة الثأر، التي تحولت لدى الفرد والنظام إلى أن كل شيء مُدان حتى قبل أن ينطق، وإلا فليفسر لي أحدهم ما أشار إليه القانون رقم ٢٨ لسنة ١٩١٠م في المادة ٤٧ مكرر، وتعني العقاب على النية[١]، أو قانون اجتماع أكثر من خمسة والذي يعود لعام ١٩١٤م ومازال ساريًا .! تحولتْ فكرة الشك إلى نظرية المؤامرة وما دمنا قد فقدنا الثقة في أنفسنا فقد فقدناها في كل شيء.. كل شيء.

تحولت فكرة الثأر لدى رجل الشارع وحتى المثقف إلى حالة دائمة لا شعورية يمارسانها ضد أنفسهما قبل أن يمارسانها ضد الآخرين،

(١) أشار د. عصمت سيف الدولة أيضًا إلي "أنه منذ عام ١٩١٠ كانت هذه المادة هراوة ترهب كل الجماعات والجمعيات والأحزاب والتحركات التي تفكر مجرد تفكير في مقاومة الاستبداد. وتفسد الضمائر وتعلم الناس الحذر من مجرد الحوار خوفا من أن يؤدي الحوار إلي اتفاق وتشكك الناس في أقرب الناس إليهم خوفا من التبليغ عما يتحاورون فيه أو يتفقون عليه حتى في جلساتهم العائلية الخاصة". فى: عصمت سيف الدولة. هل كان عبد الناصر ديكتاتورا؟. ط٢. بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٣.ص ص ٧٩-٨٠.

وتطورت فكرة الثأر المباشر حديثًا، لتحل محلها فكرة الثأر غير المباشر، بمعنى أنه لو أراد كل صاحب يد أن يثأر منك، فإنه لا يتوجه نحوك مباشرة، وإنما يبحث عن أحبائك وأكثر البشر اقترابًا منك فيثأر منك فيهم، وهنا يتشوش عقلك فتنهار شيئًا فشيئًا، أصبح للقاتل الاجتماعي التسلسلي في تلك الحالة شكل جديد، وتحولت فكرة الدم بالدم، إلى فكرة القول ثم الأذى غير المباشر ثم الأذى المباشر ثم الدم على المستوى الفردي والجمعي، ليس لها حدود تقف عندها إلا بعد إرضاء كل نوازع الثأر الداخلية.

وها نحن جميعًا أخيرًا نقف على عتبات الثأر الاجتماعي التسلسلي غير المباشر فننهار جميعًا ولا يبقى شيء، فقد أصبحت كل عيون المجتمع عمياء.

(٣)

الثأر و السلطة و البحث عن الضمير

يعني أنت مش ناوي تجيبها البر؟ ما معنى الضمير إذا كان يتم إخصاؤك كل صباح؟ إذا كنت تتعرض للسرقة في كل خطوة؟
يا صديقي لقد ضاع الضمير في الأزقة والطرقات، كنتُ أظنُ أن عصر الثورة سيعيد تشكيل الضمير، ولكنه استعبده، ثم ألقى به في أزقة ودروب صحراوية، ومن يوم خروجه لم يعد. ضمير إيه اللي أنت جاي تقول عليه؟!

ابتسمتُ محاولاً تصنع الهدوء وكنتُ أغلي من الداخل، هل كنتُ أحاول الثأر منه، لم تجف بعد الكلمات التي كتبتها في الصفحة السابقة، لكنه في النهاية صديقي وكلامه صحيح تمامًا لا غبار عليه، تاه الضمير ولم يعد أحد يبحث عنه،ولم يعد أحد يهتم إن رحل غير مأسوف عليه.

هل يمكن القول بأن الضمير لدى (سقراط) كان في عبارته الأخيرة قبل أن يموت: "يا كريتو أنا مدين بديك إلى أسكيبوس، أرجوك لا تنسى أن تدفع هذا الدين"، هل هذا هو الضمير؟

ما رأيكم بهذه العبارة التي كانت تقولها جدتي: "لو ضميرك ارتاح ها تفضل سواح"، ماذا كانت تقصد، هل راحة الضمير لا تتفق مع راحة الجسد، وهل راحة الضمير تتطلب التعب والكد والاجتهاد؟

كم من طلبة الجامعة والأساتذة الذين سرقوا بحوثًا لأقرانهم أو من الخارج (ولطعوا) اسمهم عليها، كم من رجال الأعمال اغتنى بطرق غير مشروعة، كم من تاجر غش في بضاعته، وكم من مهندس غش في بنايته، وكم من محامٍ غش في قضاياه، كم من الجرائم ترتكب كل يوم فيكِ يا محروسة دون أن يهتز جفن أو يؤرق الضميرُ أحدًا، فهل أصبحنا شعبًا بلا ضمير؟

ما الذي قتل القطاع العام في مصر؟ غياب الضمير
ما الذي قتل المؤسسة التعليمية والصحية؟ غياب الضمير.
هذا السؤال أتركه لصديقي، أما السؤال الأهم: ما الذي قتل الضمير أو من الذي قتل الضمير؟

هل سندور في فلك الديكتاتورية والجهل والمرض والفقر؟ أعتقد أن المسألة أعمق من ذلك، كل ما ذكرته عوارض لغياب الضمير، هل الضمير مرتبط بالدين والقانون والرقابة الشعبية؟ هل الضمير مرتبط بالعقل أم بالإرادة لدى الإنسان المصري؟

لقد تولد عن غياب الضمير ممارسة الفساد بغير إحساس، أو كأن الفساد حالة طبيعية (لأن المجتمع كله فاسد أو حرامي) وبالتالي فلا حاجة لرقيب داخلي إضافي، هل غاب الضمير بسبب الطمع؟، بسبب الحاجة؟، بسبب استشراء الفساد؟

غياب الضمير يعني قاتل جديد خال تمامًا من أحاسيس الوجل أو الخوف، أصبح القاتل بارد الدم والأعصاب، خالٍ من النخاع الشوكي ومن مصادر الإحساس، كائن لا فقاري، لا تهزه سوى نشوة الثراء والدم، من الخضار والفاكهة المسرطنين، والطعام المحفوظ المنتهي الصلاحية، ومن بيع المخدرات، ومن الرشوة المستشرية، ومن الكلمة الصحفية المداهنة المعجونة بالرياء ودماء الضحايا، والقوانين العليلة، أصبح هناك قاتل يخطو بقدميه في دموع الناس وأجسادهم وأحوالهم، من القطارات النعوش السائرة على قضبان، إلى البواخر النعوش إلى

السيارات النعوش إلى المسارح النعوش، إلى التوربيني نعش الأطفال، قتلة بلا ضمير، قاتل لا يهتم بأي شيء، وأصبحتْ هذه الممارسة تنطبق على الجميع، الجميع يدوس ويلطخ يديه بدماء الجميع، بدماء من هم أضعف منه، مما يعود بي مرة أخرى إلى فكرة القاتل التسلسلي الاجتماعي الذي يقتل دون ضمير.

الضمير في اللغة يعني استعداد نفسي لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأفكار والأقوال، والتفرقة بينها، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها.

وفق هذا التعريف اللغوي البسيط، فإنني لا أعتقد أن الضمير حي لدى الإنسان، وإنما مات، مات لدى الحاكم – والحاكم هنا هو أي شكل من أشكال السلطة – فهو لا يستحسن إلا ما يصب في مصلحته، خرجت القوانين المصرية سيئة السمعة، لأن من يضعها أو من وضعها ومن نشرها قد مات الضمير لديهم، ومن قرأها وصمت وسكن – خوفًا أو لا مبالاة – قد مات الضمير لديه، الضمير يموت إذا كانت البيئة، كل البيئة التي يعيش فيها قد فسدت ومات فيها الأمل، وهو بهذا المعنى يعني أن العقل فسد وكذلك الجسد، فهو لا يقوي ولا يجرؤ ولا يحتمل أي رد فعل، وأصبح الأمر مرة أخرى

قياس عددي، فنسبة من لديهم ضمير يساوي نسبة من لديهم تضخم في الغدة الدرقية في مصر، الضمير ليس له حجم محدد، فإما لديك ضمير، أو ليس لديك ضمير، فسكوتك عن مكروه أو أذى لشخص وعدم وقوفك بجانب من وقع عليه ظلم لا يعني أنك تعيش بنصف ضمير، بل أن ضميرك قد مات وشبع موتًا، وأن ما يحركه مجموعة من القيود الوهمية التي يمكنك التخلص منها في أي وقت. الضمير قيد داخلي يعطل كل نوازع الشر داخلك، ويحرك كل قدراتك ودفاعاتك ، فلا تقبل على نفسك ما ليس لك وعلى الآخرين ما ليس لهم.

تعال ننظر للمدرس ودروسه الخصوصية وعدم شرحه في الحصة، وقبوله لأي هدية، ومساومته الطلاب على الدروس، وعدم قراءته لأي جديد، واستهزاؤه بصاحب عاهة من طلاب، وتراخيه في دخول الحصة في أي وقت، ولهفته على قبض مرتبه بعد كل ذلك، هل هذا يعني أن ضميره "تعيش أنت"؟

عشرات الموظفين الذين لا يذهبون إلى أعمالهم، ويقوم زملائهم بالتوقيع بدلاً منهم، والاستهزاء بك إذا حاولت لفت نظرهم، حالة جماعية من غياب الضمير، لم تعد المسألة على (قد فلوس الحكومة) ولكن أصبحت طمعًا بلا حدود للطمع، وشراهة بلا قيود للشراهة.

تعال للمحامي الذي يقبل أي قضية، ويغالي في طلباته، ويؤجل القضية عشرات المرات، ويستحل لنفسه الحصول على أتعابه بشكل مستمر، ناهيك مع ما قد يفعله مع امرأة أو رجل، لكل حالة تصرفها، أين الضمير إذًا؟ بارك الله فيك، الضمير "تعيش أنت".

ورجل الأعمال الذي اغتنى من بيع المخدرات والمتاجرة في الآثار وبيع المأكولات الفاسدة والتي انتهتْ صلاحياتها ثم دخل مجلس الشعب أو الشورى ليدافع عن حقوق الناس! ويمرر القوانين بأرقام من الرشوة التي وصلتْ إلى حد فلكي، أي ضمير هذا الذي نتحدث عنه؟

أستاذ الجامعة الذي يبيع كتبه لطلبته بناءً على كشوف الأسماء، ومن لم يشتري لا مانع من رسوبه، أو لا مانع من مراودة طالبة عن نفسها طالما يمكن الحصول عليها، ولا مانع من أن يقوم ببيع كتبه لنفسه من شنطة سيارته أمام الكلية، ولا مانع من كتابة تقرير أمني في زميل أو زميلة، ولا مانع من عدم التدريس، وسحب الكارنيهات وممارسة كل أشكال السلطة، أين الضمير؟

والأسطى الميكانيكي أو الكهربائي، تذهب بسيارتك بعيب لتخرج وقد كدت تشحذ أو تتسول وأنت لا تفهم ما يحدث، السيارة بها ألف عيب، أين الضمير؟

والطبيب الذي يعمل بالقصر العيني أو مستشفى عام، لا مانع من أن يقوم بتحويلك إلى عيادته الخاصة، وألف كشف وألف تحليل فتذهب لطبيب آخر وثالث ورابع لتكتشف السلوك نفسه، أين الضمير؟

وصاحب المدرسة الذي يعمل لديه المدرسون بالحصة ويرفض التعاقد معهم أو تعيينهم أو توفير مرتب شهري لهم، ويفصلهم أثناء الإجازة الصيفية، ويأكل أموال الوزارة في كرشه، أين الضمير؟

ورئيس تحرير تلك الجريدة الحكومية -الجرائد الحكومية بدعة بالمناسبة- الذي فصّل لنفسه دورًا بأكمله في جريدة، ووضع مقابض الأبواب من الذهب الخالص، والذي فَصَل صحفيين شرفاء، والذي استحل لنفسه أموال ومكافآت الآخرين، وصنع لنفسه (٢ حمام جاكوزي) وابتاع لنفسه القصور والعزب، وهرّب الأموال التي سرقها إلى البنوك بالخارج... آه حالة مبتذلة ومخزية وقاسية على غياب الضمير.

وأصحاب مصانع وشركات الأدوية الذين يقومون بإجراء تجاربهم على شباب في عمر الورود في مقابل بضعة جنيهات، لينتهي عمر الولد خلال سنوات خمس على أقصى تقدير، أين الضمير؟.

إن سلسلة غياب الضمير مثل سلسلة الثأر، إذا كان مَنْ أمامك بلا ضمير فلماذا تحتفظ بضميرك، ولمن؟، ستسقط على ركبتيك في النهاية وتتسول.

لقد خلق أول شخص في التاريخ المصري غاب ضميره هذه السلسلة النهائية المجتمعية من غياب الضمير، لاحظ كل ما يحيط بك ستجد غيابًا تامًا للضمير، من أسفلت الشوارع ومطباتها إلى الحفر (السربرايز) إلى انقطاع الماء والكهرباء وزيادة القذارة واختفاء جراجات العمارات وتحويلها لمخازن تحت سمع وبصر الحكومة، والبناء غير القانوني وتبوير الأرض الزراعية - أثناء الانتخابات بالذات، ولا أعرف سر هذه الظاهرة - ومخالفات المرور وشراء رجال الشرطة لعربات الميكروباص، والميكروباصات المشوهة، والتاكسي المشوه، والأطعمة المنتهية الصلاحية، وأستاذ الجامعة الموظف، والموظف المرتشي، وحارق أجساد المصريين، ومغرق المصريين، و... الخ.
كلها حالات تشير إلى غياب الضمير الفردي ثم غياب الضمير الجمعي مُمثلاً في القانون والدين.

بموت الضمير مات الذوق والإحساس وتضخمت صفات الطمع والشراهة، وأصبحت الدخول الطفيلية للمصريين بنسبة ٩ إلى ١ أي أن

الدخول الرسمية للمصريين واحد من عشرة والباقي دخول طفيلية، كحالة جبل الجليد الذي يختفي تسعة أعشاره تحت سطح الماء بينما يظهر على السطح العُشر الأخير، الضمير لدينا يكاد يختفي، من يحتفظ بضميره في هذا المجتمع الآن إما مجنون أو معتوه أو من رحم ربي.

الضمير تم استئصاله بشكل جماعي دون حاجة إلى تدخل جراحي، والسبب في ذلك هو هذا القاتل التسلسلي الاجتماعي، أصبحنا نقبل بالغش الجمعي بعد أن كان حالات فردية لنشارك فيه جميعًا، وأصبح كل من لديه ضمير إما متسولاً أو شحاذًا، أصبح كل مكون من مكونات الحياة فاقدًا لأهم عنصر كان فيه وهو الضمير. انظر إلى المحال التجارية، إلى لافتاتها ومداخلها وطريقة عرضها لبضائعها، خاصة البضائع المهربة أو المزورة بماركات عالمية.

انظر وتطلع إلى شكل الأرصفة والبالوعات المفتوحة خاصة في منتصف الشوارع بالضبط، نوع عال من التحدي لكل الاعتبارات الإنسانية.

انظر واستمع إلى نتائج الانتخابات المزورة، هل هناك فرق؟ هل من شيء يوحي لك بأن هناك رابط بينها؟ نعم.. فوضى عارمة وغياب كامل للضمير، كأننا سرنا في جنازة الضمير جميعًا دون أن ندري من هو هذا الذي كنا نسير في جنازته.

هل كانت الثورة مسؤولة عن إعادة استحداث الضمير؟ أم إعادة تشكيله؟ أم إعادته من متاهته؟ أم قتله إن وجد؟

الثورة بريئة من مسؤولية غياب الضمير، فقد غاب الضمير على المستوى العام بعد أن منحتنا حريتنا في الاختيار، بعضنا كان يريد الثروة بأي وسيلة، والطريق معروف إما أن تلغي ضميرك، أو تسير في نفس الطريق الذي سار عليه كل من أراد الثراء السريع، المال العام أصبح مستباحًا من الكثير فاغترفوا منه بكل الطرق، وبعد عدة سنوات اكتشفنا أن قبل الثورة كان لدينا ألف حرامي، وبعدها أصبح لدينا مليون، وهو رد فعل طبيعي لفتح الأبواب فجأة بعد سنوات من القهر والذل والعبودية.

أردنا الليبرالية بشكل مثالي فوقعنا في المحظور، نسينا ردود الأفعال، أو التأثيرات السلبية الجانبية، لم تحسب الثورة حسابًا لذلك لكنه حدث، ها هو ما يمكنني أن أدين الثورة فيه، ولكنها في رأيي (ليست مغسل وضامن جنة)، بمعنى أنها نظرتْ لما في يديها وليس فيما وراء يديها، عمومًا كان لا بد أن يحدث ذلك، وها هي السنوات قد مرت بعد الثورة، فهل انصلح حالنا أم نحن نعود إلى الوراء؟

كل مكتسباتنا الحقيقية من الثورة أصبحتْ تتجه نحو الاختفاء، فهل ذلك مُدبر ومخطط، أم إنه رد فعل طبيعي؟ هل هناك من يمكن أن ندينه؟ هل ما يحدث الآن صحيح؟

تعدى الأمر حدود إدانة شخص ما أو مؤسسة ما،إن أسوأ ما سيحدث لم يحدث بعد، إني أنتظر موت آخر مصري لديه ضمير، وحين سيحدث ذلك، تنتهي سلالة أفضل مَنْ حكموا الأرض، وأسوأ من أفسد فيها!.

(٤)

الذاكرة و الذكاء .. الحلال و الحرام .. والثأر

يتفق أغلب الفلاسفة يا صديقي العزيز على أن الوعي هو أول مراحل الإدراك، ويتبعه بعد ذلك العقل والإحساس والإرادة، لماذا نقتل حتى حالة الوعي الأولي لدينا؟، لماذا هذه العلاقات المجتمعية المشوهة التي تعلو فيها قيمة الذاكرة وتنطفئ فيها قيمة الذكاء؟، لماذا أصبحتْ الذاكرة – الذاكرة المشوهة – حلالاً، والذكاء المتقد حرامًا وشرًا منقطع لا فائدة فيه؟... متى بدأ يحدث ذلك وأين، في المحروسة التي كانت تشع نورًا وعبقرية على العالم؟

المأساة الأكبر أن هناك تشويهًا متعمدًا في الذاكرة المصرية على المستوى التاريخي والقيمي وليس على المستوى الفردي فقط، وهذا التشويه هو ما نحتفظ به الآن، أما الذكاء فكفر وارتداد عقابه التنكيل والقهر.

أتطلع في كتب التاريخ المدرسية فأجد حالة من الكآبة والتسطيح والمجون، فمتى كان تاريخنا يُكتب وفقًا للجان السلطة، ولجان كتبة السلطان من حاملي المباخر ولاحسي العتبات وماسحيها؟.

أتطلع إلى المُدرس في المدرسة والأستاذ في الجامعة وهم يخاطبون ذاكرة الأولاد بعنف، ويتعمد الأستاذ أن يأتي بكلمات مبهمة في محاضراته أو كتبه ثم يأتي بها على هيئة أسئلة ولابد لكل طالب وطالبة من أن تأتي إجابته وفقًا لما قاله الأستاذ، وقس على ذلك، الخروج عن ما قاله يعني خروجًا على النص، كأنه إتيان للفواحش، كيف يمكنك أن تدلي برأي في ما لا رأي لك فيه، كتابات وعقول كهنوتية لا تبقي على أي قيمة للإرادة، تسحلها وتقتلها في مهدها، وتنزع عنها غشاء بكارتها، ومن ثم يتم تدمير العقل الإنساني البريء الطامح إلى الحياة والنور.

كثير من هؤلاء يفعل ذلك كرد فعل سلبي على ما تفعله به الدولة، الدولة قطعت أنبوب حياة العبقرية عن الناس، الدولة في حالة تجمد فكري وعقلاني، ترفع شعارات لا تؤمن هي بها، والناس على دين ملوكهم، أو الناس ضد ملوكهم بأفعالهم السلبية كحالة اعتراض بدائية، كل من يملك موقعًا يُريد أن يمارس نفس أفعال الملك أو الحاكم أو السلطان أو الآمر والناهي، كيف تقف أمام موظف يطالبك بأن تبصم؟ لأن القانون يقول ذلك، أين عقلك وكبرياؤك وكرامتك، صائبون كل من يتخيلون أن القانون سلطان العقول، لكننا نعيش عصور القوانين سيئة السمعة والذكر، لا سلطان على العقل إلا الإرادة في التغيير.

آلاف الموظفين من أصحاب نظرية الارتباط الشرطي والتابعين لمدرسة (الجشطلت) النفسية يفعلون ذلك كل يوم لأن نفس الفعل يتم فيهم حين يتحول من موظف إلى مواطن، إنها سلسلة، حلقة مفرغة من الأفعال وردود الأفعال العدوانية.

يقول (بيكون): "البغض لا يولد سوى البغض، والحب لا يولد سوى الحب"، وها نحن نتحول أو تحولنا إلى مجتمع بغيض، يكره بعضه بعضًا، يمارس الرذيلة على نفسه وعلى الآخرين، والآخرون يفعلون نفس الشيء، الحدود النهائية للبغض، هذه هي أحوالنا الآن، وصلنا إلى أقصي حدود الكراهية، نمارس تعذيب الذات وتعذيب الآخرين، توقفت ملكة الإبداع لدينا، ماتت، رُجمت، سُلطت عليها آلاف الكلاب والضباع، تحولت ملكة الإبداع الإيجابي إلى ملكات سلبية لا تفهم سوى في العدوان والأنانية والغباء منقطع النظير، تحول مجتمع الحب إلى مجتمع لا منتمي، مجتمع يتحول فيه الحق إلى باطل، والباطل إلى حق، والصواب إلى خطأ والخطأ إلى صواب، وقوانين الرحمة إلى ترهات، هذا هو مجتمع تأليه الذاكرة المشوهة، الذاكرة العدوانية.

أتحسر على ملايين التلاميذ والطلبة، صفوة عقول المستقبل في المجتمع المصري، حولناهم إلى مجموعة من البلهاء الأغبياء وتم تحريم التفكير

عليهم، لأن التفكير يؤدي إلى ضلالات، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وهناك فرق شديد بين بعض المظاهر المتعلقة بالتفكير الإيجابي وتنمية مجتمع الذكاء والإبداع.

ما المانع في أن يقف بعض الطلبة أمام الكاميرات وميكروفونات الإذاعة ليدّعوا أنهم يقومون بكل الأعمال الفنية والإبداعية، ليتفرج العالم، بينما الحقيقة أن عقول بقية أعضاء جمعية مستقبل الوطن، بلا ذكاء ولا هوية ولا عقل ولا إرادة، وحين يتقدمون في السن يصبحون بلا إحساس، وبموت الإحساس يتحول الوطن إلى مساحة من الغابة، حيث سيطرة القوة الغاشمة، ما الذي دفعنا إلى ذلك ومن ومتى؟

مرة أخرى تقف الأسئلة يا صديقي عاجزة، وتصبح الإجابات فعلاً مرادفًا للذكاء، ولكننا أيضًا من ضمن قبيلة من فقدوا ذكائهم وإحساسهم وإرادتهم.

نحن وطن اللا مختارين، اعطني إنسانًا واحدًا من هذا الشعب كان له القدرة على اختيار رئيسه؛ أعطك أول بقعة ضوء في الوطن الذي تم اغتياله، ساهمنا جميعًا في اغتيال ذكاء الوطن ليتحول إلى هذا الأحمق الذي يردد الكلمات التي يستطيبها الآخرون، الآخرون فقط، وإذا دخلتَ إلى أعماق جوفه سوف تجد التهابات لا تعد ولا تحصى، سوف

تجد حلقومًا أكلته الكلمات الجوفاء التي أصبح يرددها مثل الأسطوانة المشروخة، الجميع يريد الدخول في الحوار، لكن لسان ذكائه قد قطع منه، وتم إرسال أعضاء جمعية الذكاء والتمرد إلى داخل القضبان، فالمسرح لا يتسع لأي خارج على النص، وسماء الوطن لا مكان فيه لمن يحلق خارج سرب السلطة، المسرح ينظر إليه الأغبياء على أنه حالة من ترديد الكلمات المحفوظة غيبًا في الذاكرة، ولا يدرون أنه دعوة للتمرد على الموروث والمكتسب، لكن المخرج الأخير لا يريدك أن تردد شيئًا خارج النص ويريد لملامحك أن تكون في حالة ثبات، ورنات صوتك ذات رتم ونغمة واحدة، لتكتشف أنك لا تمثل وإنما أنت غبي، أسطوانة مشروخة تنضم إلى بقية الأسطوانات.

لماذا أصبحنا شعب يكره العلم ويحب الفهلوة إلى هذه الدرجة؟ الفهلوة في تقديرك يا صديقي حالة من التذاكي المعيب الذي دمر كل ذكائنا الأصلي، فأصبحنا نتذكر فقط أنه كان لدينا ذكاء ولابد أن يخرج بأي طريقة وبأي شكل، فأصبحنا نتذاكى، حالة من الغباء والعبط وعدم التواصل والعدمية، ولأنها طريقة يمارسها الكبار؛ كل الكبار؛ فما العيب أن تنقل إلينا بالوراثة، ها نحن قد قتلنا أفضل ما كان فينا، وها نحن جميعًا نسير في جنازة ذكائنا غير آسفين عليه.

أصبحتْ عقولنا لا تعمل إلا من أجل لقمة العيش، هي الشيء الوحيد الذي يحتل ذاكرتنا، ذاكرتنا المشوهة بالكذب والخداع من كافة المستويات، بالوعود التي لا تتحقق، وبالديكتاتورية التي ترتدي أسمال الديمقراطية، وبحالة الفوضى المتطرفة التي أصابت كل شيء، ذاكرتنا فوضى، فوضى حارقة، وعيُنا غارق في الألم، ألم المعدة، ولم يعد لدينا ألم غيره، حالة من التبلد اللا إرادي، لماذا أفكر واستدعي ذكائي ما دام طريقي معروف، لا عمل إلا لكل صاحب ولاء، ولا عمل إلا للأسر الكبيرة، ولا عمل إلا لمن سيتنازل عن كرامته وكبريائه، ولا عمل إلا بالمحسوبيات، ولا عمل لمن لديه كفاءة؛ لمن لديه ذكاء؛ لمن لديه قدرة، نحن مجتمع اللا قدرة، أصبحنا مجموعة من الأفاقين والأفاكين والظالمين والمستضعفين.

هل اليابان دولة غبية لتنشئ وزارة للذكاء؟ هؤلاء الذين احتلوا العالم بمعجزاتهم.

ما هذه الأبحاث العلمية التافهة التي لا تستحق؟ ما هذه المقالات العلمية التي تنشر في دوريات لا تستحق أن تقرأ؟ ما هذا الولد الذي يريد الحصول على الدرجة العلمية من أجل أن يترقي ماديًا أو يحصل على درجة وتصبح حياته كلها مرتبطة بها؟ ما هذه الأم التي تريد من المدرس حشو دماغ الولد بكل المعلومات ليكون في النهاية قطعة في

أسطوانة مشروخة؟ ما هذا الأب الذي يشتري لابنه الشهادة؟ ما هذا الرجل العربي الذي أتى للقاهرة للحصول على درجة علمية من ذوي نفوس ضعيفة؟ ما هذا السائق الذي يجلس على المقهى وينتظر أن يقذفه الله بمئات الجنيهات دون أن يتحرك؟ ما هذه المسابقات في التليفون المحمول التي تمتلئ بالكذب والنهب؟ وما هؤلاء الآلاف الذين يتسابقون للاشتراك فيها من أجل الحصول على سيارة أو مبلغ من المال لا يأتي أبدًا؟

نحن نرسخ بشكل جدي لغبائنا، ولا أستطيع أن ألوم سوى أول من بدأ بذلك، هل ألوم الثورة التي زجت برأس مصر وعقلها وإرادتها في السجون؟ وهل هذا فعلاً حقيقة؟

هذا السؤال وقف أمامه الكثيرون، لكن مَن هم الذين ألقتْ الثورة بهم في المعتقلات والسجون؟

هم كل من أراد أن يعيق مسيرتها دون أن يدري ما الذي تقوم بفعله؟ كنا نحتاج إلى مسيرة واحدة، ففي زمن سبق الثورة كثرت المسيرات ولم تنجح مسيرة واحدة في إنقاذ الوطن ومجموع المستضعفين، ولم تهتم بهم من الأصل، حتى أتت الثورة وحتى أتى عبد الناصر، لم يدرك المثقفون حقيقة الثورة، كانوا يريدون العودة بها إلى أيام الملكية فوقف لهم بالمرصاد، كان كل ما يحدث في الملكية من أحزاب ومجلس شيوخ

وأمة، عبث... عبث كامل، وعلى ذلك يجب أن يخرج (عبد الناصر) من دائرة اللوم، فما فعله كان يصلح للوقت الذي بدأت فيه الثورة، لا يصلح لما بعدها، وهنا بدأ التغيير، فهل فعلا تغيرنا، وضعنا يافطات كتبنا عليها أسماء الأحزاب والصحف وهانحن ننهش في أنفسنا جميعًا، نسينا أن التغيير المطلوب كان لابد أن يكون على مستوى الفرد، على مستوى تغيير العقلية الفردية لتمتلئ بالذكاء والثقافة فتعطي.

ما الذي حدث بعد ذلك؟ هل ألوم الحكام الذين استمروا على نفس المنوال؟ هل ألوم أنفسنا لأننا ارتضينا ذلك؟ هل ألوم نظام العبيد في التعيين من أول عمدة القرية للوزير للغفير للمدرس للموظف لمهندس الحي الذي لا يستغل علمه سوى في الرشوة وتشويه عمارة البلد؛التي كانت يومًا جميلة؟ هذه العمارة التي يقول عنها (شوبنهاور): "العمارة الجميلة تشبه الموسيقي المتجمدة".

المشكلة أيضًا في جوهرها أنه ليس مطلوبًا من الذكاء أن يُشارك في معركة التحضر، فالقاتل الاجتماعي المتسلسل لا يريد ذكاءك، وأقسم بالله لا يريد ذاكرتك أيضًا، ولأنك فقدت أعز قيمة لدى الإنسان ألا وهي الذكاء،فهل نعلن بعد ذلك موت الذكاء أيضًا ونسير في جنازته؟

مَنْ حرق ذكاء مصر وإبداعها من الطفل إلى الفنان والعالم العبقري؟ لا تتطلع حولك، فقد شاركتَ أنتَ أيضًا في ذلك بشكل أو بآخر.